٦ - الأراضى الفارسية بدلا من المدن اليونانية

رأينا رغبة الملك المقدونى فيليب أبى الإسكندر الأكبر فى توحيد كل المدن اليونانية فى مملكة واحدة خاضعة لحكمه حتى يستطيع اليونانيون التغلب على الفرس فلا يهدد الفرس بلاد اليونان مرة تلو أخرى ، وربما ينجح الفرس ذات مرة فى غزو بلاد اليونان والسيطرة عليها ما دامت المدن اليونانية قد تمسكت كل مدينة منها باستقلاليتها الكاملة عن المدن اليونانية الأخرى ، وما دامت المدن اليونانية تتحارب فيما بينها حروبا ضارية طويلة الأمد كما حدث بين أثينا وإسبرطة فى حرب البيلوبونيز التى دامت ثلاثين عاما .

ورأينا كيف نجح الملك المقدونى فيليب فى التغلب على بعض المدن اليونانية المتاخمة لمملكة مقدونيا جنوبا ، كما نجح فى صد هجوم القبائل الإسكيذية البربرية المتخلفة الزاحفة جنوبا نحو المدن اليونانية ، واكتسب الجيش المقدونى الذى ورثه الإسكندر المقدونى عن أبيه خبرة قتالية بلغت أرقى مستويات الخبرة العسكرية فى الجيوش المعاصرة له نتيجة لبراعة قيادة الملك فيليب ونتيجة للانتصار فى المعارك المتتالية مع جيوش قادمة من وسط أوروبا شمال مقدونيا ، وجيوش عنيدة تدافع ببسالة وشراسة عن استقلال المدن اليونانية جنوب مملكة مقدونيا .

ورأينا كيف انقسم اليونانيون بين مؤيد لوحدة المدن اليونانية بقيادة مقدونيا ورافض لوحدة المدن اليونانية متمسك باستقلالية كل مدينة بحيث انقسم اليونانيون مع فيليب وضد فيليب فى كل المدن اليونانية . وكان فيليب يبث أعوانه وجواسيسه فى كل المدن اليونانية لاستمالة أهلها وإقناعهم بأن المصلحة العليا للمدن اليونانية تتمثل فى اتحادها فى دولة واحدة تحت قيادة ملك مقدونيا القوى الذى كان يدفع الأموال بسخاء لبعض زعماء اليونان ليكونوا عملاء للنفوذ المقدونى .

".. كان ديموستين من أشد المعارضين لأطماع الملك فيليب فى السيطرة على كل المدن اليونانية"

ورأينا كيف انبرت أثينا فى شخص الخطيب الأثينى البارع " ديموستين " لمقاومة رغبة الملك المقدونى " فيليب " فى السيطرة على كل المدن اليونانية ، وكانت أثينا تعمد إلى تكوين الأحلاف العسكرية لنجدة أى مدينة يونانية تتعرض للهجوم المقدونى . وكان ديموستين بقدرته الفذة على الخطابة وبالخطب

النارية التى كان يلقيها على أسماع اليونانيين عقبة كأداء فى طريق سيطرة فيليب على كل المدن اليونانية .

وفى إحدى خطب ديموستين الشهيرة ضد فيليب قال ديموستين :

" أيها الأثينيون ! الملك المقدونى فيليب ، ذلك الرجل المتخلف الطاغية المستبد ! إنه رجل لا يقتصر شأنه على أنه غير يونانى فقط ، بل إنه أيضا ليس همجيا من قطر محترم . إنه رجل شرير فاسد من مقدونيا ، ذلك القطر الذى لا نستطيع أن نحصل منه على عبد لائق يصلح لخدمة يونانى راق ، وهو يريد أن يستعبدكم ويقضى على نظامكم السياسى الذى يكفل الحرية التامة لكل مواطن أثينى ليصبح كل الأثينيين عبيدا له . هل توافقون على ذلك أيها الأثينيون الأحرار ؟ "

وتعبير " غير يونانى " الذى استخدمه ديموستين فى وصف الملك المقدونى فيليب تعبير مفعم بالدلالة فى أذهان كل اليونانيين بوجه عام وفى أذهان الأثينيين بوجه خاص ، إذ كانوا يعتبرون أن الإنسان اليونانى هو الإنسان الوحيد المكتمل السيادة والحرية ، وكل من ليس يونانيا منقوص السيادة والحرية !

ورأينا كيف كانت نشأة الإسكندر فى تلك الظروف المضطربة ، وكيف كانت مواهبه العسكرية الكاملة الكامنة بين جوانحه متأهبة متحفزة للانطلاق ، إذ تمكن من ترويض الحصان بوسيفالس ، الذى عجز فرسان أبيه وعجز أبوه عن ترويضه، وكان الإسكندر يقول لزملائه الذين يلعب معهم فى صباه عندما كانت تصله أنباء انتصارات أبيه على جيوش المدن المجاورة : " ها هو ذا أبى يفتح المدن اليونانية واحدة تلو الأخرى . ماذا سيبقى لى لكى أفتحه أنا ؟ "

وأظهر الإسكندر مقدرة قتالية عظيمة عندما تمكن فى مقتبل شبابه أن يصد هجوما قادما من شمال مقدونيا فى غارة شنها عليها الإسكيذيون منتهزين فرصة غياب الملك فيليب عن مقدونيا فى إحدى حملاته ضد إحدى المدن اليونانية جنوب مقدونيا، وكذلك قاد الإسكندر تحت إشراف أبيه فيلق الفرسان المقدونيين

بنجاح كبير أسهم فى تحقيق النصر للمقدونيين ضد مدينة ثيبة ، وكانت كل المؤشرات تدل على نبوغ الإسكندر العسكرى منذ ريعان شبابه .

وعندما ذاعت أنباء اغتيال الملك فيليب واعتلاء الإسكندر عرش مقدونيا تمردت المدن اليونانية التى كان الملك فيليب قد أخضعها للحكم المقدونى ، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن مملكة مقدونيا ، إذ كانوا يعتقدون أن الملك الإسكندر الشاب لن يصل أبدا إلى مستوى كفاءة أبيه فى البراعة الحربية والقدرة على القتال وتحقيق الانتصار ، ولكنهم كانوا مخطئين فى ظنونهم .

وقام الإسكيذيون فى شمال مقدونيا بالهجوم على مقدونيا عندما عرفوا نبأ اغتيال الملك فيليب ، ولكن الإسكندر تمكن من قيادة جيشه القوى المراس ، وردهم على أعقابهم حتى وصل إلى ما يعرف الآن باعتبار أنه بلغاريا ، ووصل إلى نهر الدانوب وهاجم مملكة تربيلى الإسكيذية ، ولكنهم كانوا قد أرسلوا نساءهم وأطفالهم إلى الضفة الأخرى من نهر الدانوب ، وسارعت لنجدتهم قبائل إسكيذية أخرى فى محاولة للصمود أمام جيش الإسكندر المقدونى ولكنه هزم الإسكيذيين هزيمة ساحقة وعبر جيش الإسكندر وراء فلولهم نهر الدانوب ، على الرغم من أنهم كانوا قد حطموا المعابر الموجودة فوق ضفتى ذلك النهر ، ولكن الإسكندر كان قد أعد أطوافا عائمة من الخشب عبر عليها أكثر من خمسة آلاف رجل من جنوده وفرسانه وتعقب فلول الإسكيذيين مصمما على أن يبيد فلولهم بحيث لا يستطيعون معاودة التفكير فى غزو مملكة مقدونيا على مدى عقود متتالية من الأعوام .

وراجت فى بلاد اليونان إشاعة تقول : إن الإسكندر قد قتل فى بلاد حوض نهر الدانوب مما جعل المدن اليونانية تثور على حكم المقدونيين مرة أخرى ، ووصلت إليهم مساعدات حربية من ملك الفرس الذى أمد المدن اليونانية بكميات كبيرة من الأسلحة والأموال لتشجيعهم على الاستقلال عن مقدونيا . ووصل جيش الإسكندر العائد من حوض نهر الدانوب إلى مملكة ثيبة ، أولى الممالك اليونانية التى بدأت بالعصيان وأقربها إلى مقدونيا .

ورفض أهل ثيبة الاستسلام بتشجيع من أثينا وإسبرطة وخرجوا لمواجهة ومنازلة جيش الإسكندر ، بينما كانت بقية الممالك اليونانية تنتظر نتيجة المعركة وتأمل أن يتمكن جيش ثيبة من دحر جيش الإسكندر ليتوقف الهجوم المقدونى ولا يمتد إليهم ، ولكن الإسكندر سحق جيش ثيبة سحقا تاما ، وكان الغضب قد استبد بالإسكندر لعصيان أقرب المدن اليونانية إلى مقدونيا وتمردها على حكمه ، وأراد أن يجعل أهل ثيبة أمثولة بين الممالك اليونانية فأمر بهدم كل المنازل فى ثيبة

هدما تاما وأحرقها ، ولم يبق منها إلا المعبد والمنزل الذى كان يعيش فيه الشاعر اليونانى الشهير بندار تكريما لذكراه بعد مائة عام من وفاته ، وهرب من نجا من القتل من أهل ثيبة إلى أثينا يحملون إليهم أنباء شدة بطش الإسكندر وقوة مراسه، ولكن ثمانية آلاف مواطن من أهل ثيبة وقعوا فى أسر جيش الإسكندر وتم بيعهم باعتبار أنهم عبيد . وبعد أن سحق الإسكندر جيش ثيبة ، أعلنت المدن اليونانية خضوعها لسلطان الإسكندر ، وعاد إلى الظهور من جديد حلف كورنثوس الذى كان يعنى اتحاد كل المدن اليونانية بزعامة مقدونيا لصد العدوان الفارسى على بلاد اليونان ، وبقيت أثينا وحدها ترفض الخضوع لسلطان مقدونيا.

وتطلع الإسكندر المقدونى حوله . لقد توقف خطر الإسكيذيين فى الشمال من مقدونيا تماما بعد أن أباد الإسكندر فلولهم بعد وفاة أبيه مباشرة . ولقد خضعت معظم المدن اليونانية لسلطان مقدونيا ولم يبق من المدن اليونانية التى كانت تقاوم النفوذ المقدونى إلا أثينا وحدها فى أقصى جنوب اليونان . ولم يعد ثمة مجال لطموحات الإسكندر العسكرية يكفى لإظهار كل مواهبه وكفاءته العسكرية .

وامتدت أنظار الإسكندر المقدونى إلى بقية العالم المعمور خارج نطاق بلاد اليونان كلها . امتدت أنظاره إلى أملاك الدولة الفارسية الواسعة المتعددة الأقطار من شبه جزيرة الأناضول حيث تقع تركيا الآن حتى بلاد الشام ومصر ، وبابل وآشور وإيران والهند والباكستان حتى بلاد الأفغان . ومن الغريب حقا أن يصل طموح الإسكندر الأكبر إلى كل هذه الآفاق والآماد ، ولم يكن يحد طموحات الإسكندر العسكرية بالفعل حدود .

ترك الإسكندر لأمه - بمساعدة واحد من أكفأ القادة فى الجيش المقدونى هو القائد الشهير " أنتيباتر Antipater " - مهام الحكم فى مقدونيا ومهمة إخضاع بقية المدن اليونانية للسيطرة المقدونية ، وكأنما كانت هاتان المهمتان من المهام الصغيرة التى لا يليق بالإسكندر الموهوب الشديد الطموح أن يبقى قابعا

فى مقدونيا لمباشرة شئونها . كانت طموحات الإسكندر المقدونى أكبر من ذلك بكثير كما سبق أن أشرنا .

وقام القائد المقدونى أنتيباتر بالمهمتين اللتين ألقاهما الإسكندر المقدونى على عاتقه خير قيام .

حيث قام بحماية ملكة مقدونيا (أم الإسكندر) من أى طامع أو حاقد ، وقام باستكمال إخضاع المدن اليونانية لنفوذ مملكة مقدونيا بما فى ذلك أثينا نفسها ، واضطر الزعيم الخطيب المفوه " ديموستين " إلى الهرب من أثينا إلى جزيرة كالوريا فى بحر إيجه ، ولجأ إلى معبد " بوسيدون " الذى كان حرما مقدسا لا يجوز أن يقتل بداخله أى إنسان وفقا لما تعارف عليه اليونان .

وأرسل أنتيباتر فرقة من الجنود المقدونيين يقودهم قائد عملاق الجسم يدعى " أركياس Arcias " للقبض على ديموستين بعد إخراجه من المعبد وإحضاره حيا أو ميتا للمثول أمام أنتيباتر .

ولدى وصول الجنود إلى معبد " بوسيدون " طلبوا من " ديموستين " الخروج إليهم حتى لا يجرونه إلى خارج المعبد عنوة .

واستمهلهم " ديموستين " مهلة قصيرة حتى يكتب وصيته ثم يخرج إليهم . وخرج بعد وقت قليل إليهم بالفعل ، ولكنه كان قد ابتلع كمية من السم مخبوءة فى تجويف فى خاتم كان بإصبع يده ، وهو يقول لأركياس : " تستطيع أن تلعب فى المأساة دورك الذى دفع لك المقدونيون أجره كممثل قديم محترف ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى لتأكل منها الطيور ، ولكننى أترك معبد "بوسيدون" حيا أمشى على قدمى حتى لا أسمح لجنود مقدونيا أن يدنسوا المعبد المقدس بأقدامهم".

ومشى ديموستين خطوات قليلة بعد أن ألقى على أسماع الحاضرين آخر خطبة فى بيان مثالب المقدونيين وبيان كبرياء وأنفة الأثينيين ، ومشى نحو مستمعيه بخطوات قليلة ثم وقع فوق الأرض جثة هامدة بعد أن كان قد صاح صيحة ألم

مدوية . وسكت إلى الأبد أقوى وآخر صوت لرجل أثينى رافض الخضوع للحكم المقدونى ، وإن بقيت أصداء خطبه البليغة خالدة على مر الزمان .

حدث ذلك ، وكان الإسكندر الأكبر المقدونى قد عبر مضيق الدردنيل بجيشه المقدونى القوى العتيد لتحقيق آماله وأحلامه الكبرى التى لم تكن تحدها حدود .

تجرع ديموستين السم حتى لا يقع فى الأسر